صورة الإمام علي – عليه السلام –
في
القصائد العلويات السبع
لابن أبي الحديد المعتزلي (ت ٦٥٥هـ)

أ . م . د حسين عبد العال اللهيبي
جامعة الكوفة / كلية الفقه

المقدمة :

تعدُّ شخصية الإمام علي – عليه السلام – من الشخصيات الفذة التي قلّ نظيرها في تاريخ الإنسانية ؛ لما له من الفضائل والخصائص التي أهلته لأن يكون علماً يرمز إليه بالبنان ، ونجماً يقصر دون بلوغه كلّ متفاخرٍ ، ولو جهد بكلِّ طاقته ، فمن ذا الذي يداني غلي بن أبي طالب في عظمة شخصيته ، وكمال فخره . فهو كما قال ولده الإمام الحسن – عليه السلام – ((والله لقد قبض فيكم الليلة رجلٌ ما سبقه الأولون إلاّ بفضل النبوة ، ولا يدركه الآخرون ، وإن رسول الله كان يبعثه المبعث فيكتنفه جبرائيل عن يمينه ، وميكائيل عن يساره ، فلا يرجع حتى يفتح الله عليه))[١] .

فإن عدّ أئمة البلاغة والفصاحة كان إمامهم الذي لا يشقّ غباره ، فقد كان من أنطق الناس وأجودهم ارتجالاً واقتضاباً للقول . وإن عدّ أصحاب الشجاعة كان فارسهم الذي لا يغلب ، إذ كانت (شجاعته غالبة على أعطافه ، مشهورة معروفة من نعوته وأوصافه)[٢] . وإن عدّ أهل العدل والوفاء كان شيخهم الذي لا يبخس حقاً ، ولا يخيس عهداً .

وهو أخو رسول الله – صلّى الله عليه وآله وسلّم – وابن عمه ، وزوج ابنته وأبو سبطيه ، ووصيه ، وحامل لوائه في حروبه ، وسيفه المسلول على أعدائه ، والقائل فيه (أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبيّ بعدي)[٣] .

حباهُ رسول الله– صلّى الله عليه وآله وسلّم – بلطف عنايته ، وأولاهُ جميل عنايته ، وأبان عن حقّه ، ونوّه بذكره فضله في أكثر من موقف ومناسبة ، مصرّحاً تارة ، وملوّحاً تارةً أخرى، بحسب النقول المروية عنه ، والتي رزقت حظّاً كبيراً من الإثبات والوثاقة ؛ وما ذاك إلاّ تأكيداً منه على شرف قدره ، وعظيم منزلته ، ورفيع مقامه عند الله تعالى ؛ وليدلّ بذلك على إمامته ، ووجوب طاعته .

إنه علي بن أبي طالب إمام المتقين ، وقائد الغرّ المحجلين ، ويعسوب الدين ، وأحد أئمة أهل البيت الذين اصطفاهم الله ، وفضّلهم على العالمين ، وطهّرهم من كلّ رجس ، فقال – جلّ وعلا – **چڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک کچ** ، [سورة الأحزاب : ٣٣] . فهو كما قال ابن أبي الحديد المعتزلي (ما أقول في رجلٍ تعزى إليه كلّ فضيلة ، وتنتهي إليه كلّ فرقة ، وتتجاذبه كلّ طائفة ، فهو رئيس الفضائل وينبوعها ، وأبو عذرها وسابق مضمارها ، ومجلّي حَلَباتها ، كلّ من

بزغ فيها بعده فمنه أخذ ، وله اقتفى ، وعلى مثاله احتذى)[٤] . بل الأعجب من ذلك أن (أقرّ له أعداؤه وخصومه بالفضل ، ولم يمكنهم جحد مناقبه ، ولا كتمان فضائله ، فقد علمتَ أنه استولى بني أمية على سلطان الإسلام في شرق الأرض وغربها ، واجتهدوا بكلّ حيلةٍ في إطفاء نوره ، والتحريض عليه ، ووضع المعايب والمثالب له ، ولعنوه على جميع المنابر ، وتوعّدوا مادحيه ، بل حبسوهم وقتلوهم ، ومنعوا من رواية حديث يتضمّن له فضيلة ، أو يرفع له ذكراً ، حتّى حظروا أن يسمّى أحدٌ باسمه فما زاده ذاك إلاّ رفعة وسموّاً، وكان كالمسك كلّما سُتر انتشر عرفه ، وكلّما كُتم تضوّعَ نشرُه ، وكالشمسِ لا تستر بالراح ، وكضوء النهار أن حجبت عنه عين واحدة ، أدركته عيون كثيرة)[٥] :

ومناقـــــب شـــــهد العـــــدو بهـــــا والفضـــلُ مـــا شـــهدت بـــه الأعـــداءُ

ذلك هو علي بن أبي طالب ، وتلك هي شخصيته الفذة التي تستهوي المسلمين ، وتثير شغفهم ، وتملك عليهم وجدانهم ، وكان ابن أبي الحديد المعتزلي (ت ٦٥٦هـ) ممن أعجب بشخصية الإمام علي ، فمضى يتغنّى بحبّه ، ويمتدح صفاته وأخلاقه وقيمه ومثله ، ويدعوه إلى ذلك إخلاصه لدينه ، واعتناقه لمبادئه .

ويأتي هذا البحث في محاولة جادّة للوقوف على صورة الإمام علي – عليه السلام – في القصائد السبع العلويات لابن أبي الحديد ، ولتوضيح معالم هذه الشخصية ، وإبراز آثارها .

التمهيد

دراسة في ترجمة ابن أبي الحديد المعتزلي

نسبه :

هو عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد ، أبو حامد ، عز الدين المدائني المعتزلي[٦] . ولد بالمدائن سنة ٥٨٦هـ وبها نشأ ، مات ببغداد سنة ٦٥٥هـ .

ثقافته :

انصرف ابن أبي الحديد منذ صغره لتلقي العلم ، فبدأ بحفظ القرآن الكريم على شاكلة لدّاته ، ثمّ سافر إلى بغداد ؛ ليكمل دراسته على يد أشهر علماء عصره ، منهم :

١- أبو الفرج عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) .

٢- عمر بن عبد الله الدباس (ت ٦٠١هـ) .

٣- أبو الخير مصدق بن شبيب الصلحي (ت ٦٠٥هـ) .

٤- يوسف بن إسماعيل اللمغاني (ت ٦٠٦هـ) .

٥- عبد الوهاب بن سكينة الصوفي (ت ٦٠٧هـ) .

٦- أبو جعفر يحيى بن محمد النقيب العلوي (ت ٦١٣هـ) .

٧- أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري (ت ٦١٦هـ)

وإذا ما تتبعنا حياة هؤلاء وجدنا في حياة كلّ واحدٍ منهم صفة العلم والإجادة فيه ، وقد تأثر ابن أبي الحديد بهم ، ونهل من معينهم ، وعنهم أحاط بثقافته ، وتدرّب على أيديهم .

لقد هيأ له سفره إلى بغداد التبحر بالعلم ، والاستزادة من التحصيل ، فضلاً عن طيب الإقامة وحسن الحفاوة والتكريم ، فأصبح من صدور العلماء الذين يرمز إليهم بالبنان ، كما تبوأ مناصب مهمة في الدولة ، ونال حظوة الخلفاء . وكان حظياً عند الوزير مؤيد الدين بن العلقمي لما بينهما من المناسبة والمقاربة والمشابهة في التشيع والأدب والفضيلة[٧] .

إن اتصاله بأهل العلم والأدب كان مما ساعده على تنمية ملكاته الأدبية ، فأصبح كاتباً مترسلاً ، وشاعراً بارعاً .

ولابن أبي الحديد مكانة متميّزة في ميدان الكلام والمناظرة ، وهو في ذلك يستجلي الحقائق ويجيد التعبير عما يريد فيبلغ ببيانه مبلغاً كبيراً .

وقد نالت شخصيته إعجاب مترجميه ، فأثنوا عليه ثناءً منقطع النظير ، فقد نعته ابن الجزري بالفقيه البارع والشاعر المحسن[٨] ، وفيه يقول ابن شاكر الكتبي (كان فقيهاً أديباً فاضلاً)[٩] .

وذكره ابن كثير فقال : كان أحد الكتاب والشعراء في الديوان الخليفتي[١٠] .

شاعريته :

اشتهر ابن أبي الحديد بالنثر أكثر من شهرته بالشعر ، مع أنه قد برز في كليهما ، وقد أثنى عليه الدارسون القدامى ، وأشادوا بقدراته العالية في النظم ، فهو معدود – كما يقول الصفدي –في أعيان الشعراء ، وله ديوان مشهور[١١] ، ووصفه اليونيني (وكان فقيهًا أديبًا فاضلاً وله أشعار حسنة)[١٢] ، وعدّ ابن كثر أشعاره بالأشعار الفائقة الرائقة[١٣] .

آثاره :

ترك ابن أبي الحديد عدداً كبيراً من المؤلفات التي تدلُّ على غزارة علمه وفضله ، ومن هذه المؤلفات :

١– شرح نهج البلاغة .

٢– الفلك الدائر على المثل السائر .

٣– كتاب العبقري الحسان .

٤– كتاب الاعتبار على كتاب الذريعة ، في أصول الشريعة للسيد المرتضى .

٥– كتاب شرح المحصل للامام فخر الدين الرازي .

٦– كتاب الوشاح الذهبي في العلم الأدبي .

٧– القصائد السبع العلويات : مجموعة قصائد نظمها في مدح الإمام علي بن أبي طالب – عليه السلام – .

٨– المستنصريات : مجموعة قصائد نظمها في مدح الخليفة المستنصر بالله العباسي[١٤] .

صورةُ الإمام علي – عليه السلام –
في
القصائد العلويات السبع
لابن أبي الحديد المعتزلي (ت ٦٥٥هـ)

القصائد السبع العلويات لابن أبي الحديد نظمها في مدح الإمام علي – عليه السلام – وهو في عنفوان شبابه ، وقد جاءت لوحة فنية رائعة تقصُّ جانباً كبيراً من صفاته وكراماته وفضله ، وقد صبّ فيها جلّ اهتمامه فجاءت محكمة البناء ، متينة العبارة ، ويبلغ عدد هذه القصائد سبع قصائد ، وهي :

١- **القصيدة الأولى** في ذكر فتح خيبر ، وهي القصيدة البائية ، وعدد أبياتها (٩٩ بيتاً) ، ومطلعها :

ألا إنّ نجـــدَ المجـــد أبـــيضُ ملحـــوبُ ولكنّـــه جـــمّ المهالـــكِ مرهـــوبُ

٢- **القصيدة الثانية** في ذكر فتح مكة ، وهي القصيدة الرائية ، وعدد أبياتها (٥٢ بيتاً) ، ومطلعها :

جللـــت فلمـــا دق فـــي عينـــك الـــورى نهضـــت إلـــى أم القـــرى ايـــدي القـــرى

٣- القصيدة الثالثة في وصف النبي – صلّى الله عليه وآله وسلم - وهي القصيدة الكافية ، وعدد أبياتها (٢٠بيتاً) ، ومطلعها :

عـــــن ريقهـــــا يتحـــــدث المســـــواك أرجـــاً فهـــل شـــجر الكبـــاء أراك

٤- القصيدة الرابعة في وقعة الجمل ، وهي القصيدة السينية ، وعدد أبياتها (٣٩ بيتاً) ، ومطلعها :

بزغـــــت لكـــــم شـــــمس الكـــــنس وبـــــدت لكـــــم روح القـــــدس

٥- القصيدة الخامسة في وصف الإمام علي ومدحه ، وهي القصيدة الرائية ، وعدد أبياتها (٦٤ بيتاً) ، ومطلعها :

لمـــن ظعـــن بـــين الغمـــيم فحـــاجر بـــزغن شموســـا فـــي ظـــلام الـــدياجر

٦- القصيدة الساسة في وصف الإمام علي ومدحه ، وهي القصيدة العينية ، وعدد أبياتها (٨٠ بيتاً) ، ومطلعها :

يـــا رســـم لا رســـمتك ريـــحٌ زعـــزعُ وســـرى بليـــلٍ فـــي عراصـــك خـــروعُ

٧- القصيدة السابعة ، في وصف الإمام علي ومدحه ، وهي القصيدة اللامية ، وعدد أبياتها (٦٤ بيتاً) ، ومطلعها :

الصـــــبرُ إلاّ عـــــن فراقـــــكَ أجمـــــلُ والصـــــعبُ إلاّ عـــــن ملالـــــك يســـــهلُ

كان ابن أبي الحديد معجباً بشخصية الإمام علي – عليه السلام – تلك الشخصية التي استهوت قلبه ، وملكت عليه وجدانه ومشاعره ، فتغنى ببطولته وشجاعته ، وأفاض في ذكر مناقبه وفضائله عبر قصائد اتسمت بدفق العاطفة ، ورقة الوجدان ، وروعة الأداء ، وجودة السبك ، وقد عرفت بالقصائد السبع العلويات .

وشخصية الإمام علي – عليه السلام – لها حضورٌ واسع في ذاكرة النبيّ – صلّى الله عليه وآله وسلّم – الذي ما فتأ يذكره ، ويثني عليه بأسمى ما اتسمت به شخصيته من قيمٍ ومثل وأخلاق ؛ ومن كانت هذه منزلته وعظمته ، فمن غير شكٍّ أنها تثير نوازع الشاعر ابن أبي الحديد وتأخذ

بمجامع قلبه ؛ لهذا نجده في هذه القصائد مأخوذاً بعاطفة الحب والإعجاب بشخصيته ، يقول ابن أبي الحديد في معرض حديثه عن الإمام علي– عليه السلام – (فأما فضائله فإنها قد بلغت من العِظَم والجلالة والانتشار مبلغاً يسمج معه التعرّض لذكرها)[١٥] ؛ كان ابن أبي الحديد يفضلّ الإمام علي ، ويقدّمه على غيره ، وهو ما يتضح في قوله[١٦] :

أرى لـــك مجـــداً لـــيس يُجلـــبُ حمـــدُهُ بمـدحٍ ، وكـلُّ الحمـد بالمـدح مجلـوبُ
وفضـــلاً خليـــاً إن وَنَـــى فضـــلُ فاضـــلٍ تعاقـــبَ إدلاجٌ عليـــه وتأويـــبُ

ونحسبُ أنَّ جنوحَ الشاعر ابن أبي الحديد إلى هذا اللون من الشعر إنما هو لغايةٍ روحيّة ، حيثُ يفزعُ إلى ربِّه راجياً عفوه ، ومُستشفعاً بابن عمّ المصطفى ووصيه ، الذي يرى مدحه أسنا من صيام الهواجر[١٧] :

وإن صـــام نـــاسٌ فـــي الهـــواجر حســـبةً فمـدحكَ أسـنّا مـن صـيامِ الهـواجرِ

وإذا كان الحديث عن صورة الإمام علي في القصائد السبع ، فأنا سنقتصر الحديث على أربع قصائد هي أكثر إيضاحاً لشخصية ألإمام علي – عليه السلام – وأول ما نقف عنده :

المبحث الأول

صورة الإمام علي – عليه السلام –

في

القصيدة العينية

تعدُّ القصيدة العينية عند تأمل سماتها وخصائصها الفنية من أروع القصائد السبع التي نظمها ابن أبي الحديد في مدح الإمام علي – عليه السلام – ويستهلّ هذه القصيد بمقدمة طللية على نمط أشعار العرب القدامى ، حيث يبدأ بها[١٨] :

يـــا رســـم لا رســـمتك ريـــحٌ زعـــزعُ ... وســرت بليـلٍ فـي عراصـك خـروعُ
لـــم ألـــف صـــدري مـــن فـــؤادي بلقعـــاً ... إلاّ وأنـــت مـــن الأحبـــة بلقـــعُ

ثم ينتقل بمهارةٍ وقوة تصرّف إلى مديح الإمام علي– عليه السلام – :

قـــد قلـــتُ للبـــرق الـــذي شـــقّ الـــدجى ... فكـــأن زنجيـــاً هنـــاك يجـــدعُ
يـــا بـــرقُ إن جئـــت الغـــريّ فقـــل لـــه : ... أتـــراك تعلـــم مـــن بأرضـــك مـــودعُ

فهو في زحمه هذا الهيجان العاطفي يوميء إلى أرض الغري ، إذ يقف حيران يتساءل عن عظمة المدفون فيها :

فيـــك ابـــن عمـــران الكلـــيم وبعـــده ... عيســـى يقفّيـــه وأحمـــد يتبـــعُ
بـــل فيـــك جبريـــل الأمـــين وميكائيـــل وإســـ ... ـــرا فيـــلَ والمـــلا المقـــدّس أجمـــعُ
فيـــك الإمـــام المرتضـــى فيـــك الوصـــيُّ ... المجتبـــى فيـــك البطـــين الأنـــزعُ

وهنا يرسم صورة جميلة للإمام علي– عليه السلام – يبرزها في لوحةٍ فنية رائعة :

الضـــارب الهـــام المقنـــع فـــي الـــوغى ... بـــالخوف للـــبهم الكمـــاة يقنـــع
ومبـــدّد الأبطـــال حيـــث تـــألبوا ... ومفـــرّق ألأحـــزاب حيـــث تجمّعـــوا
يـــا هـــازم الأحـــزاب لا يثنيـــه عـــن ... خـــوض الحمـــام مـــدجّجٌ ومـــدرّعُ
يـــا قـــالع البـــاب الـــذي عـــن هـــزّه ... عجـــزت أكـــفٌّ أربعـــون وأربـــعُ

إنها صورة البطل الذي لا يقهر ، ولا يفلّ عزمه ، ولا يتهيّب الموت عند لقاء عدوّه ، كرّار غير فرار ، نذر نفسه للإسلام ، وبذل مهجته من أجل إعلاء كلمة الله تعالى ، فلم تأخذه في الله لومة لائم ، ما أدار ظهره لعدوّه ، وما ضرب أحداً ونجا من سيفه .

وفي غمرة هذا المديح ، وسمو هذا الإطراء نجده سرعان ما يستدرك ، فيجد نفسه أنه مهما أفاض في مديحه وبالغ في الثناء عليه ، فإنه يبقى عاجزاً من أن يوفيه حقّه في المديح والثناء ، وكيف يعجز عن مديحه ؟ ، وهو الشاعر الفذ ، والخطيب المصقع ، ولكن قصارى ما تجود به قريحته فيه أنّه الشافع لمحبيه يوم القيامة ، والمشفّع من قبل الله – عز وجل – فيمن يريد أن يشفع له :

أنـــا فـــي مـــديحكَ الكـــنُّ لا أهتـــدي ... وأنـــا الخطيـــبُ الهزبـــري المصـــقعُ
أأقـــولُ فيـــك ســـميدعٌ كـــلاّ ، ولا ... حاشـــا لمثلـــكَ أن يقـــالَ ســـميدعُ
بـــل أنـــت فـــي يـــوم القيامـــة حـــاكمٌ ... فـــي العـــالمين وشـــافعٌ ومشـــفّعُ

ونراه يهيم بالإمام علي هياماً غريباً ، ويذوب فيه صبابةً ووجداً ، وكأنه عاشق متيم أضناه الشوق ، وأعياه الوجد :

يـــا مـــن لـــهُ فـــي أرض قلبـــي منـــزلٌ ... نعـــم المـــراد الرحـــب والمســـتربعُ
أهـــواك حتّـــى فـــي حشاشـــة مهجتـــي ... نـــارٌ تشـــبُّ علـــى هـــواك وتلـــذعُ
وتكـــــادُ نفســـــي أن تـــــذوب صـــــبابةً ... خلقـــاً وطبعـــاً لا كمـــن يتطبّـــعُ

بل يتمادى إلى غاية أبعد من ذلك ، فيظهر ما انطوت عليه سريرته ؛ لأنّ له فيه معتقداً يريد أن يفصح عنه ، ويكشف سرّه ؛ ليعبّر بذلك عن شعورٍ ملك عليه إحساسه ، وأثار في نفسِه روح الإكبار والاحترام لشخصية الإمام علي– عليه السلام – ، وما على أرباب النهى إلاّ أن يصغوا له ليسمعوا ما يريد أن يبوح به :

لـــي فيـــك معتقـــدٌ سأكشـــفُ شـــرّه ... فليصـــغِ أربـــاب النهـــى وليســـمعوا
هـــي نفثـــة المصـــدور يطفـــي بردهـــا ... حـــرُّ الصـــبابةِ فاعـــدلوني أو دعـــوا ؟
واللهِ لـــولا حيـــدرٌ مـــا كانـــت الـــدُّنيا ... ولا جمـــــع البريـــــة مجمـــــعُ
مـــن أجلـــهِ خلـــق الزمـــان وضـــوِّئت ... شـــهب كنســـن دجـــن ليـــلِ أدرعُ
علـــمُ الغيـــوب إليـــه غيـــر مـــدافعٍ ... والصـــبح أبـــيض مســـفرُ لا يـــدفع
وإليـــه فـــي يـــوم المعـــاد حســـابنا ... وهـــو المـــلاذ لنـــا والمفـــزعُ
هـــذا اعتقـــادي قـــد كشـــفت غطـــاءه ... سيضـــرّ معتقـــداً لـــه أو ينفـــعُ

ويغرق في وصفه إلى أقصى غاية ، فيحلق في فضاءات المبالغة والغلو ، ومن غير شكّ أن هيامه وصبابته تدفعه إلى ذلك :

لـــولا حـــدوثك قلـــت : إنّـــك جاعـــل ... الأرواح فـــي الأشـــباح والمتنـــزعُ
لـــولا مماتـــك قلـــت إنـــك باســـطَ ... الأرزاق تقـــدّرُ فـــي العطـــاء وتوســـعُ

المبحث الثاني

صورة الإمام علي – عليه السلام –

في

القصيدة اللامية

استهلّ هذه القصيدة بمقدمة غزلية رقيقة الألفاظ ، جارية على وصف الشوق والحب ، وذكر الصبابة والغرام ، وقد ابتدأها[١٩] :

الصـــــبرُ إلاّ عـــــن فراقـــكَ أجمـــلُ والصـــعبُ إلاّ عـــن ملالـــك يســـهلُ
يـــا ظالمـــاً حكّمتـــه فـــي مهجتـــي حتّـــى مَ فـــي شـــرع الهـــوى لا تعـــدلُ
أنفقـــتُ عمـــري فـــي هـــواك تكرُّمـــاً وتضـــنّ بـــالنزر القليـــل وتبخـــلُ

ثم ينتقل باستطرادٍ رشيق إلى الغرض الرئيس وهو المديح ، ولعلّ أول يواجهنا به من مديحه أنه أظهر في هذه القصيدة اشتياقه إلى زيارة قبره الشريف الذي تحف به الملائكة ، ومن قصده من زواره تجدهم عكّفاً سجداً بين مسبحٍ ومقدس وممجد ومعظم ومكبر ومهلل ، وإذا ما بلغت القبر فالثم ثراه فإنها المسك الذي تضوع نشره ، ثمّ امضِ مسرعاً لتستلم شبّاكه فتحظى بزيارته التي هي شاهد المودة له ، ثمّ قل بعد ذلك : السلام عليك يا أمير المؤمنين :

يـــا راكبـــا تهـــوي بـــه بدنيـــة حـرف كمـا تهـوي حصـاة مـن عـل
عـــج بـــالغري علـــى ضـــريح حولـــه نـــادٍ لأمـــلاك الســـماء ومحفـــل
فمســـبح ومقـــدس وممجـــد ومعظـــم ومكبـــر ومهلـــل
والـــثم ثـــراه المســـك طيبـــا واســـتلم عيدانـــه قـــبلا فهـــن المنـــدل
وانظـــر إلـــى الـــدعوات تصـــعد عنـــده وجنـــود وحـــي الله كيـــف تنـــزل
وقـــلِ الســـلام عليـــك يـــا مـــولى الـــورى نصّـــاً بـــه نطـــق الكتـــابُ المنـــزلُ

ونراه يعجب من هذه الأرض التي ضمّت هذا الجسد الطاهر بين أطباقها كيف لا تتزلزل ، بل العجب لأملاك السماء وهي تمتع نظرها بوجهه الكريم كيف لا تتهلل وجوهها :

عجبـــاً لهـــذي الأرض يضـــمرُ تُرْبهـــا أطـــواد مجـــدك كيـــف لا تتزلـــزلُ
عجبـــا لأمـــلاك الســـماء يفوتهـــا نظـــر لوجهـــك كيـــف لا تتهلـــل

ثمّ يتوغل إلى أعمق من ذلك حيث يحلّق بعيداً حين يطلق العنان لخياله ؛ فينعته نعوتاً تثير شغف المتلقي ، وتجعله متشوقاً إلى معرفة المزيد من خصائص هذا الإمام العظيم ومناقبه ؛ فهو النار التي شبّ سناها لموسى حين أظلم ليله :

يـــا أيهـــا النـــار التـــي شـــب الســـنا منهـــا لموســـى والظـــلام مجلـــل

بل هو النبأ العظيم المقصود بقوله تعالى ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭼ [النبأ : ١ – ٢] ، ذلك النبأ الذي أفلح من أحبّه وخاب من أبغضه ، وحق لمن أحبه أن يتفانى دونه ، ويبذل مهجته في سبيله ، لأنّ حبّه هو الفيصل الذي يفرّق بين المؤمن والمنافق ، وهو ما أوضحه الحديث الشريف (يا علي لا يحبُّك إلاّ مؤمن ولا يبغضك إلاّ منافق)[٢٠] :

يـــا أيُّهـــا النبـــأ العظـــيم فمهتـــدٍ فـــي حبّـــه وغـــواةُ قـــومِ ضـــلّلُ

بل إن حبه فرضٌ واجب كسائر الفروض ؛ لأنه الباب الذي يلج منه المسلمون يوم القيامة للفوز بجنات النعيم :

إن كـان ديـن المصـطفى ديـن الهـدى حقّـاً فحبُّـــــك بابـــــه والمـــــدخلُ

بل هو فلك نوح التي لا خوف على من ركبها ، ولا نجاة لمن تخلّف عنها :

يـــا فلـــك نـــوحٍ حيـــث كـــلّ بســـيطةٍ بحـــرٌ يمـــورُ ، وكـــل بحـــرٍ جـــدولُ

بل هو وارث التوراة والإنجيل والقرآن :

يـــا وارث التـــوراة والإنجيـــل والـــ ـــقرآنِ والحِكَـــم التـــي لا تغفـــلُ

بل لأجله خلق الله الزمان :

لـــولاك مـــا خلـــق الزمـــان ولا دجـــى غِـــبّ ابـــتلاج الفجـــر ليـــلٌ أليـــلُ

المبحث الثالث

صورة الإمام علي – عليه السلام –

في

القصيدة الخامسة الرائية

ومطلع هذه القصيدة[٢١] :

لمـــن ظعـــن بـــين الغمـــيم فحـــاجر بـزغن شموسـا فـي ظـلام الـدياجر

ثم ينتقل إلى الغرض الذي من اجله نظم القصيدة ، وهو المديح ، ولكنّه يجده نفسه قاصراً عن مديحه ، فهو يتعالى ويسمو عن كلّ مدح ، وما عسى المادح أن يقول فيه :

تعاليـــت عـــن مـــدح فـــأبلغ خاطـــب بمـدحك بـين النـاس أقصـر قاصـر

ولكي يرقى بمديحه فيعد صفاته عين أسمائه ، وهو بذلك يغوص عبر هذا الغموض بما تعارف عليه المتكلمون من وصف الله تعالى بأن ذاته جوهر ، وهو يجل عن الأعراض لأنه ليس بجسم يحيط به مكان ، ولا يحويه زمان ، بل لا يحد بوصف ، وهو أكبر من تشبيهه بالعناصر ، ومعاذ الله أن يعتقد فيه ما يخرجه من ربقة الإسلام ، لأنه لو أراد ذلك لما وصفه بصفات البشر كما رأينا في مجمل قصائده التي مرّت بنا سابقاً :

صـــفاتك أســـماء وذاتـــك جـــوهر بـرئ المعـاني مـن صـفات الجـواهر

يجـل عـن الأعـراض والأيـن و المتـى ويكبـر عـن تشـبيهه بالعناصـر

لقد رسم ابن أبي الحديد في هذه القصيدة للأمام علي– عليه السلام – صوراً موحية ومؤثرة تنبعثُ عن نفسٍ صادقةٍ تسيلُ من قلبه ولسانه ، إذ كان مثله الأعلى الذي يحتذى به ؛ فمضى يصوغ أفكاره ، ويظهر إعجابه به مستنداً في كلّ ما نظمه من فضائل ومناقب إلى الأحاديث المروية عن النبي– صلّى الله عليه وآله وسلّم – والتي رزقت حظّاً كبيراً من الإثبات والوثاقة . وكان من بينها الحديث المروي (حب علي حسنة لا تضرّ معها سيئة ، وبغضه سيئة لا تنفع معه حسنة) فإن الشاعر استطاع بقدرته الفنية أن يلمع إليه بطرف خفي :

حلفـــت بـــرب القعضـــبية والقنـــا المثقـف والبـيض الرقـاق البـواتر

لقـــد فـــاز عبـــد للوصـــي ولاؤه وإن شـــابه بالموبقـــات الكبـــائر

وخـــاب معاديـــه ولـــو حلقـــت بـــه قـوادم فتخـاء الجنـاحين كاسـر

وذو المعجـــزات الواضـــحات أقلهـــا الظهـور علـى مسـتودعات السـرائرِ

ومنها حديث قسيم النار والجنة ، وقد سئل الإمام أحمد بن حنبل : يا أبا عبد الله ما تقول في حديث : علي قسيم الجنة والنار ، فقال أحمد : وما تنكرون من ذا ؟ ، أليس روينا أن النبيّ –

صلّى الله عليه وآله وسلّم – قال لعليّ : (لا يحبُّك إلاّ مؤمن ولا يبغضك إلاّ منافق)[٢٢]، وقد ألمع إلى ذلك بقوله في قصيدته الرائية التي تحدّث فيها عن حبّه ونصرته له ، إذ لا يرجو شفاعة غيره ما دام هو قسيم الجنة والنار على نحو ما جاء في قوله :

إذا كنـــت للنيـــران فـــي الحشـــر قاســـماً أطعـتُ الهـوى والغـيَّ غيـر محـاذرِ
نصـــرتُكَ فـــي الـــدنيا بمـــا أســـتطيعه فكـن شـافعي يـومَ المعـاد وناصـري

ويمضي في استقراء معالم شخصيته ، فينعته بالآية العظمى تارةً ، وتارة أخرى ينعته بمستنبط الهدى الذي حار به أرباب النهى والبصائر :

هـــو الآيـــة العظمـــى ومســـتنبط الهـــدى وحيـــرةُ أربـــاب النهـــى والبصـــائر

ومنها صورة النبأ المكنون والجوهر الذي هو من نور الله قبل أن يخلق آدم – عليه السلام – :

بـــل هـــو النبـــأ المكنـــون والجـــوهر الـــذي تجسّـدَ مـن نـورٍ مـن القـدس زاهـرِ

والنتيجة التي ينتهي إليها أنه لولا جهاده وتفانيه وتضحيته في سبيل الإسلام لما قامت للإسلام قائمة ، ولا رفعت له راية :

ألا إنمـــــا الإســـــلام لـــــولا حســـــامه كعفطـــــة عنـــزٍ أو قلامـــــة ظـــــافر

وكان مطلعاً على غوامض العلوم ، وأسرار المعرفة ، ولولا علومه تلك لكان التوحيد ، عرضة الضال ، وبغية الكافر :

ألا إنمـــــا التوحيـــــد لـــــولا علومـــــه كعرضـــــة ضـــــلّيل ونُهبـــــة كـــــافرِ

وينتهي أخيراً إلى المقارنة بين قبره الشريف ، وبين الصفا والمشعر الحرام ، ولكن الشاعر لشدة هيامه ووجده يجد أن ذلك القبر هو ركنه مشعره الذي يطوف به ، حين يطوف الناس بالصفا والمشعر الحرام :

إذا طـــاف قـــومٌ فـــي المشـــاعر والصّـــفا فقبـــرُك رُكنـــي طائفـــاً ومشـــاعري

إنه يحنُّ إلى زيارة قبره الشريف حنيناً متصلاً ، وهو في كلّ ذلك يقرن هذا الشوق والحنين بالتوسل والاستشفاع به – عليه السلام – ؛ فهو يرى أن حبّه هو خير ذخيرة ، وأوفى عدّة له يوم القيامة ، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم :

وإن ذخـــــر الأقـــــوامُ نُســـــك عبـــــادةٍ فحبُّـــــك أوفـــــى عُـــــدّتي وذخـــــائري

المبحث الرابع

صورة الإمام علي – عليه السلام –

في

ما تبقى من قصائده السبع

إن ما تبقى من قصائد ابن أبي الحديد التي نظمها في الإمام علي – عليه السلام – أربع قصائد ، وقد تطرق الشاعر فيها إلى حروبه التي كانت على عهد النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – وحروبه التي خاضها إبان خلافته ، وقد تحدث فيها عن شجاعته وفروسيته وبسالته في حومة الوغى ، وهو يقاتل الأعداء ، وقد ساحت دماء أعدائه لكثرة قتلاهم ، وصار سيفه كالصاعقة عليهم ، ولم يكن الموت بعيداً عنه ، فهو ممن لا يأبه بالموت ، ولا يعبأ به ، وهو ما جسده في قصيدته السينية[٢٣] :

فـــــافزع إلـــــى مـــــدح الوصـــــيّ ففيـــــه تطهيـــــر الـــــنجسْ

رب الســـــلاهب والقواضـــــب والخمـــــس والمقانـــــــــــــــــــــــــب

ثم يذكر حروبه في النهروان وصفين ، ينتقل بعدها إلى مديح فيؤكد على شجاعته وفروسيته ، فنعته بأسد الملاحم إذا ما حمي الوطيس ، واشتد القتال ، كما أكد على زهده وورعه وتقواه وعلمه :

يرمـــــي بهـــــا بحـــــر الـــــوغى أســـــد الملاحـــــم والـــــوطس

الزاهـــــــد الـــــــورع التقـــــــي العـــــالم الحبـــــر النـــــدس

ويستسل على هذا النحو في قصيدته الرائية[٢٤] :

وردت حنينـــــاً والمنايـــــا شـــــواخصٌ فـــذللت مـــن أركانهـــا مـــا تـــوعرا

فكـــم مـــن دم أضـــحى بســـيفك قـــاطراً بهـــا مـــن كمـــي قـــد تركـــت مقطـــرا

وصفوة القول : إن هذه القصائد تمثل نمطاً راقياً من النظم ، تشهد لصاحبها بسلامة الطبع ، وأصالة الفنّ ، وقوّة القريحة .

الخاتمة

وكان مما توصل إليه البحث :

١- أن هذه القصائد هي ترجمة حيّة لسيرة إمام المتقين الإمام علي بن أبي طالب – عليه السلام ، فقد ركز ابن أبي الحديد فيها على فضائله ومناقبه ، وكل ما يتعلق بحياته منذ أن كان صبياً يافعاً يخوض غمار الحرب متدرّعاً بإيمانه ، باذلاً مهجته في سبيل الله ، مفتدياً ابن عمّه .

٢- كان ابن أبي الحديد المعتزلي ممن أعجب بشخصية الإمام علي ، فمضى يتغنّى بحبّه ، ويمتدح صفاته وأخلاقه وقيمه ومثله ، ويدعوه إلى ذلك إخلاصه لدينه ، واعتناقه لمبادئه ، فهي تعكس حقيقة ما انطوى عليه ضميره .

٣- إنَّ جنوحَ الشاعر ابن أبي الحديد إلى هذا اللون من الشعر إنما هو لغايةٍ روحيّة ، حيثُ يفزعُ إلى ربِّه راجياً عفوه ، ومُستشفعاً بابن عمّ المصطفى ووصيه .

٤- رسم ابن أبي الحديد في هذه القصيدة للأمام علي– عليه السلام – صوراً موحية ومؤثرة تنبعثُ عن نفسٍ صادقةٍ تسيلُ من قلبه ولسانه ، إذ كان مثله الأعلى الذي يحتذى به ؛ فمضى يصوغ أفكاره ، ويظهر إعجابه به

الهوامش

[١] مروج الذهب : ٤٣٦/٢ .

[٢] الفصول المهمة : ٦٢ .

[٣] صحيح البخاري : ٨١/٥ ، كتاب فضائل الصحابة ، رقم الحديث (٢٢٥) صحيح مسلم : ٢٢٤/٨ ، كتاب فضائل الصحابة ، رقم الحديث (٢٤٠٤/٣٠) .

[٤] شرح نهج البلاغة : ١/ ١٦ .

[٥] المصدر نفسه : ١٧/١ .

[٦] ينظر في ترجمته : وفيات الأعيان : ٣٩١/٥ ، ذيل مرآة الزمان : ٦٢/١ ، وتاريخ الإسلام : ٧٧٩/١٤ ، المختار من تاريخ ابن الجزري : ٢٤٢ ، الوافي بالوفيات : ٤٦/١٨ ، فوات الوفيات : ٢٥٩/٢ ، عيون التواريخ : ٢٠/ ١١٢ ، البداية والنهاية : ٢٠١/١٣ ، عقد الجمان : ١٦٤/١ .

[٧] البداية والنهاية : ٢٠١/١٣ .

[٨] المختار من تاريخ ابن الجزري : ٢٤٢ .

[٩] عيون التواريخ : ١١٢/٢٠ .

[١٠] عقد الجمان : ١٦٤/١ .

[١١] الوافي بالوفيات : ٤٦/١٨ .

[١٢] ذيل مرآة الزمان : ٦٢/١ .

[١٣] البداية والنهاية : ٢٠١/١٣ .

[١٤] ينظر : ذيل مرآة الزمان : ٦٢/١ .

[١٥] شرح نهج البلاغة : ١٧/١ .

[١٦] شرح القصائد السبع العلويات : ٦ .

[١٧] المصدر نفسه : ٣٢ .

[١٨] المصدر نفسه : ٤٢ .

[١٩] المصدر نفسه : ٥٥ .

[٢٠] فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : ١٠٥ ، رقم الحديث : ٧١ .

[٢١] شرح القصائد السبع العلويات : ٣٢ .

[٢٢] طبقات الحنابلة : ٣٢٠ .

[٢٣] شرح القصائد السبع العلويات : ٢٩ .

[٢٤] المصدر نفسه : ١٨ .

المصادر

– البداية والنهاية : لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (٧٧٤هـ) تحقيق : د . أحمد أبو ملحم وآخرون ، الطبعة الثالثة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م .

– تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام : لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق : د . بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م .

– ذيل مرآة الزمان : موسى بن محمد اليونيني (ت ٧٢٦هـ)، دائرة المعارف العثمانية ، الهند ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م .

– شرح نهج البلاغة : لبن أبي الحديد هبة الله بن عبد الحميد المدائني (ت ٦٥٦هـ) تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى الحلبي ، القاهرة ، ط٢ ، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م .

– صحيح البخاري : لمحمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ) تحقيق : قاسم الشماعي الرفاعي ، دار القلم ، بيروت .

– صحيح مسلم : لمسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ) ضبطه وصححه : محمد سالم هاشم ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط٢ ، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م .

– طبقات الحنابلة : لمحمد بن أبي يعلى (ت ٥٢٦هـ) مطبعة السنة المحمدية ، مصر ، ١٩٥٢م .

– عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان : لبدر الدين محمود بن أحمد بن موسى العيني (ت ٨٥٥هـ) ، تحقيق : د . محمد محمد أمين ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م .

– عيون التواريخ : لمحمد بن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ) ، تحقيق : الدكتورة نبيلة عبد المنعم داود ، والدكتور فيصل السامر ، دار الحرية ، بغداد ١٩٨٤م .

– الفصول المهمة في معرفة الأئمة : لعلي بن محمد المالكي الشهير بابن الصبّاغ(ت ٨٥٥هـ) تحقيق : السيد جعفر الحسيني ، مطبعة الاعتماد ، قم ، ١٤٢٧هـ .

– فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : للإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) تحقيق : حسن حميد السنيد ، مطبعة ليلى ، قم ، ١٤٢٥هـ .

– فوات الوفيات والذيل عليها : لمحمد بن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ) تحقيق : د . إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ١٩٧٤م .

– المختار من تاريخ ابن الجزري المسمّى (حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر من أبنائه) : لشمس الدين محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الجزري القرشي (ت ٧٣٩هـ) ، تحقيق : خضير

عباس محمد خليفة المنشداوي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .
– مروج الذهب ومعادن الجوهر : لعلي بن الحسين المسعودي (ت ٣٤٦هـ) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م .
– وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (٦٠٨– ٦٨١هـ) ، تحقيق : د . إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٢م .
– الوافي بالوفيات : لخليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ) ، تحقيق : أحمد الأرناؤوط ، وتركي مصطفى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ١، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٢م .